تواصل اللغة ، وتأثير صحافة ما بعد ٢٠٠٣ م
(دراسة في صحيفتي التآخي ، والصباح)

زينب جمعة الساعدي
جامعة بغداد - كلية الإعلام

المستخلص .

تتنوع الوسائل التي يعتمدها الإعلام المقروء (الصحافة) في إيصال رسائله ، وتوجهاته إلى القارئين ، ولكنّ اللغة تمثّل زعامة تلك الأساليب بلا منازع، أو منافس حقيقي - لحدّ الآن - ويعود ذلك إلى ما تتمتع به اللغات من خصائص وميزات ، منها : السهولة ، والاختصار ، والنماء ... الخ .

وفي خضم الأحداث ، والتجاذبات السياسية ، وما تحمل من تطورات عالمية كان من أهمها سقوط النظام العراقي السابق في ربيع عام ٢٠٠٣ م كان للصحافة نصيب وافر ، وحصة كبيرة في رصد الحدث ، وتبعاته المختلفة إخباراً، وتحليلاً ، وتفسيراً يختلف باختلاف التوجهات السياسية المتطورة ، وما أفرزه هذا السقوط لأنموذج من الأنظمة الشمولية القوية ؛ الأمر الذي يخلق نماءاً في الحدث المتتالي ، ونتائجه المتلاحقة ، وبالتالي سيحقّق تطوراً ، ونماءاً ملحوظين في الصحافة الراصدة ، والموثّقة لكلّ ذلك .

ومن البدهي بمكان القول بالأثر ، والمؤثر بين الحدث السياسي الجاذب لفضول الصحافة المتحفّز على الدوام من جهة ، والوسائل الناقلة - وأهمها اللغة - فعناصر التأثير من تسارع الحدث ، وتجلّي صراع الحضارات ، وغيرهما كفيلة بنمو التأثير سلباً ، أو إيجاباً على الصحافة من جهة ، واللغة من جهة أخرى.

وقد رصد متتبعو التطور اللغوي في أحداث لبنان الدامية التي استمرت ١٥ عاماً تطوراً في مختلف المستويات اللغوية الإعلامية بسبب كثير من المؤثرات السياسية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والنفسية ، يقول الحبيب النصراوي : « رأينا أنّ الصحافة مثّلت مجالاً واسعاً لتغيير واقع العربية بسبب اتصالها الوثيق بالحياة اليومية ، والعلاقات الاجتماعية التي شهدت تطوراً كبيراً ، وهذا هو العامل الأساسي في توسيع المجال الحيوي للغة ، وفي مضاعفة الأسباب ، والعوامل التي تشارك جميعاً في تطويرها ، فإنّ المجتمع يصنع لغته بالطريقة التي تتحدّد نسب حاجاتها اللغوية ، وقد وجد في الصحافة مجالاً مستحدثاً يتميز باليُسر ، والانفتاح على الجديد ، في مجال لا يخضع للقيود الصارمة التي تخضع لها عادةً الاجناس الأدبية الأخرى من نثر ، وشعر »[1] وعلى الرغم من أنّ هذا الأمر يثير حفيظة حماة العربية إلا إنّ الواقع الإعلامي المعاش يفرض لغة متطورة تحمل ميزات خاصة بها لعلّ أهمها التطور ، والتجديد ، سواء كان التطور والتجديد هذان سلبيان في واقع علاقتهما مع اللغة العربية الأم أم كانا إيجابيين يقدّمان فروض الطاعة ، والولاء للغة الضاد العتيدة .

وما جرى في العراق من تطورات ، وتغييرات مشابهة لما حدث في لبنان، ولا يكاد يختلف إلا في سرعة الحدث ، ونمائه في أشهر لا أعوام !

وهذا البحث يدرس راصداً العنوانات الرئيسة في صحيفتين عراقيتين، هما: التآخي ، والصباح ، وقد كانت عينة البحث محددة بمدة زمنية ثابتة (لشهرين تقريباً للتآخي ، وشهر واحد للصباح) ، كالآتي :

أ-صحيفة التآخي (الكردية بإصدارها العربي) : ابتداءاً بالعدد ٣٩٨٢ ، الدورة الثالثة ، ١٠ آيار لسنة ٢٠٠٣ م ، ٩ ربيع الأول لعام ١٤٢٤ هـ إلى العدد ٤٠١٩ ، ٣٠ حزيران ٢٠٠٣ م ، ٣٠ ربيع الثاني ١٤٢٤ هـ .

ب-صحيفة الصباح (التي صدرت بعد سقوط النظام) ، العدد ٣٢٢ ، ١ آب ٢٠٠٤ م ، ١٤ جمادى الآخرة ١٤٢٥ هـ إلى العدد ٣٤٨ ، ٣١ آب ٢٠٠٤ م ، ١٥ رجب ١٤٢٥ هـ .

يأتي اختيار الصحيفتين في مدة زمنية تجاوزت عام ٢٠٠٣ م ، إحداهما تمثل وجهة نظر لقومية كردية لها تاريخها في العراق ، وأخرى أصبحت بمرور الأيام الصحافة شبه الرسمية البديلة لصحافة النظام السابق .

وقد قسمت البحث على قسمين : الأول منهما تنظيري تناولت فيه إيصالية اللغة ، وما يتعلق بها من روابط وغايات أخرى ، ومدى أهمية ذلك في الإعلام ، وتطبيقي تناولت فيه دراسة للعنوانات المذكورة آنفاً ، وختمت البحث بمجموعة من النتائج أرجو أن أكون موفقةً فيها ، والله من وراء القصد ، والحمد لله أولاً ، وآخراً .

المحور التنظيري

إيصالية اللغة ... ثم ماذا ؟

تظلّ اللغة الحدّ الفاصل بين الإنسان ، وغيره من الموجودات الأرضية الأخرى ؛ التي تصاحبه على هذا الكوكب . ويظلّ التعريف الأرسطي القديم للإنسان بأنه : (حيوان ناطق) الحكم الفصل في تفريق الإنسان ، وتمييزه عن سائر المخلوقات ، ويمكن القول : « إنّ للغة وظيفتين مستقلتين : الاتصال (الخارجي) مع الأتراب من بني البشر ، وما يعادل هذا في الأهمية من الاستخدام (الداخلي) لأفكار المرء . إنّ معجزة الإدراك البشري هي إنّ كُلّاً من هذين النظامين يستخدمان نفس الشفرة اللغوية » [٢] ، ويشترط في عملية التواصل هذه وجود (مرسل) يستخدم اصطلاحاً معيّناً ، و(مصطلح) متفق عليه ، و(رسالة) يُراد تبليغها ، و(قناة) تنقل تلك الرسالة ، و(مستقبل) يفكّ رموز الاصطلاح [٣]، وإنّ أيّ خلل في هذه الشروط الخمسة سيكون عائقاً دون تحقيق جوهر اللغة الذي خُلقت من أجله ؛ لأنّ الاتصال « طاقة الحياة الاجتماعية ، إنه وعي الذات ، والجماعة ينعكس في سلسلة ، أو لعبة من العلاقات البيولوجية ، والاقتصادية ، والروحية ، ونحن لا نتصل إلا بما هو مشترك فينا أساساً مع الآخرين » [٤] .

وبذا تكتسب اللغة أهميتها الكبيرة في كونها المعرّف ، والمميز الحقيقي لوجود الإنسان ، وإنسانيّته ، وحضارته ، وهو أمر استوعب الإنسان قيمته حينما جعل اللغة بديلاً ثميناً لكلّ الأساليب القديمة من الرسوم والصور ، وغيرهما في التعبير ، والإيضاح ، وعلى الرغم من كثرة الأساليب التي اخترعها الإنسان في التعبير عن أفكاره ، وعواطفه ، ومشاعره إلا إنّ الأساليب تلك لم تكن في يوم من الأيام منافساً جديّاً للغة .

وسؤالنا الأهمّ : هل اكتفت اللغة بغايتها الإيصالية الأولى ؛ التي عبّر عنها ابن جني(ت

٣٩٢ هـ) بقوله : « أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم » ؟ [٥]

وبطبيعة الحال سيكون الجواب : لا ، فاللغة تتجاوز حدود الإيصال الساذج إلى أغراض ، ومنافع أخرى ، تتطور بتطور الحضارة الإنسانية ، وتزداد بازدياد الحاجة إلى تلك الأغراض ، مع ما يمتلكه الإنسان من إبداع ، وتطوير لا يقفان عند نقطة ثابتة .

لاحظ البلاغيون السمة الإيصالية في اللغة حينما بدأوا يُنظّرون لعلوم البلاغة ، فسطّروا في مدوّناتهم تحديد الخبر ، والإنشاء ، وانطباق وصف الصدق، والكذب عليهما ؛ للتفريق بينهما فجعلوا الخبر ما يصدق وصف الصدق ، أو الكذب في جوابه ، خلافاً للإنشاء الذي يتحكم برقبة الجملة الطلبية ، ويسيطر على أدواتها ؛ من أمر ، ونهي ، ودعاء ، وتحذير ، وغير ذلك [٦] ، ومن ثم انتبهوا للغايات الأخرى للغة، ومنها الجمالية التي نظّروا لها في علم البديع ؛ كالجناس ، والطباق ، والمقابلة ، والتصريع ، والترصيع ، وبقية فنونه ، والتصويرية التي نظّروا لها في علم البيان ؛ وهي التشبيه ، والمجاز ، والاستعارة ، والكناية .

وإذا ما أردنا تتبع الغايات التي ابتدعها الإنسان للإفادة من اللغة فإننا سنجد مجموعة من الأغراض تفوق غيرها في الاستخدام ، والأهمية ، منها :

أ - الجمالية : وتتبع في الغالب التطور الحضاري ، والبيئي المعاش بما يكفل ترفاً في اللغة وأساليبها ، وميلاً نحو الرقة ، والعذوبة ... الخ .

والجمالية التي تعكسها اللغة لا تقف عند حدود الترف الظاهر للغة ، بل تتجاوز ذلك لتكون ملمحاً حضارياً كاشفاً عن طبيعة المجتمع ، وأسلوباً ذهنياً معاشاً ، لذا نجد هيمنة بعض الظواهر اللغوية الصعبة في البيئة الصحراوية القاحلة كاستعمال الهمزة بشكل كبير ، أما في الحجاز فإنّ اللهجة أخذت تميل إلى تسهيل الهمزة ، وتحويلها إلى أصوات أسهل أقل صعوبة ؛ كالألف ، والواو والياء.

ب - التصويرية : ويمكن القول : إنّ الإنسان اتّخذها وسيلة تعويضية عن حواسّه كالسمع ، والبصر ، وغيرهما ؛ إمّا لفقده لهنّ ، أو اختزالاً لعملهنّ ، أو غير ذلك ، بعبارة أدقّ « عملية استحضار ذهني خيالي » [٧] يتخذ من اللغة وسيلته في تحقيق نماء التصوير ، وإبداعه .

وبذا اختزلت اللغة ببراعة الصورة الأولى التي ملأت الكهوف بأصوات قليلة مختصرة .

ت - التأثيرية : وهي الغاية التي نمت مع ظهور الاختلاف بين بني البشر، فأصبحت هناك حاجة ماسّة للإقناع ، والتأثير ، ولعلّها الوسيلة الأقوى التي استغلّت بقية الوسائل لخدمتها في تحقيق غايتها .

والعلاقة بين الصحافة المقروءة ، واللغة أزلية ؛ إذ لا يمكن الفصل بينهما ، أو قطع أحدهما عن الآخر ولو بمجرد التفكير ، فلا يمكن أن تستعيض الصحافة المقروءة بوسيلة أخرى عن اللغة ، وفي ضوء الفهم القومي لانتماء اللغة « تمثل الصحافة في هذا المجال دوراً كبيراً ، فهي من الوسائل التي يتوصل بها إلى ربط العرب بالعالم ، وربط لغتهم بلغاته » [٨] ، وعلى الرغم من وجود الكاريكاتير ، وغيره من الوسائل التعبيرية غير اللغوية المنطوقة إلا إنّها لا تزاحم اللغة بأيّة حال من الأحوال .

ولكنّ لغة الصحافة المقروءة فقدتْ عنصراً مهما في أدائها اللغوي ، وهو العنصر السمعي المتبادل - كما هو مفترض في اللغة من وجود المتكلم ، والمستمع - لإعتمادها على القراءة البصرية فقط ، وهو أمر مهم جعل الوظيفة البصرية الركن الأهم في لغة الصحافة المقروءة . الأمر الذي

يخلق معادلة تتميز بالمجازفة في تعويض الأثر السمعي للغة بالمؤثر البصري للصفحة الأولى ، وهو ما يجعل مهمة تصميم الصفحة الأولى همّاً كبيراً ، وإذا ما فقدت اللغة عنصرها السمعي فإنّ محرر العنوان الرئيس يستطيع ببراعة فهمه لموسيقى اللغة تعويض ذلك بالاستعانة بالموسيقى الداخلية ، والخارجية للألفاظ ، والجمل المركبة معاً .

تمتلك اللغة العربية مجموعة من المؤثرات الموسيقية الداخلية ، والخارجية، منها[٩] :

١-نوعية الاصوات التي تصاغ منها المفردة الواحدة .

٢-وعية الصيغة الصرفية للمفردة . وفي هذا المجال تتحدث الباحثة لطيفة النجار قائلة : « يتحقق هذا الأمر عندما تنوب بنية صرفية واحدة عن مجموعة من الأبنية الصرفية في تأدية الوظيفة النحوية لها ، فهذه النيابة تؤثر في طبيعة التركيب فتؤدي إلى التحكم في امتداد الجُمل فيه ، وفي تشكيل العلائق النحوية المختلفة بين مفرداته ... « [١٠] .

٣-الجناس ، والطباق ، والمقابلة ، والتكرار ... الخ

٤-العروض الخليلي . نعم لا يمكن توظيف الشعر بشكل كامل في العنوان الرئيس ، لكن يمكن توظيف أجزاء الأبيات ، والتفعيلات بشكل ناجح فيه ، وهو أمر غائبٌ عن المحررين بشكل كامل . فإنّ عنواناً كـ(غائبون) مثلاً يحمل وقعاً موسيقياً من امتزاج صيغته الصرفية (اسم الفاعل) ، وتفعيلته العروضية (فاعلات) لتظهر بوقع موسيقي مؤثر .

وغير ذلك بما يضمن معوّضاً للأثر السمعي للغة الصحافة .

وهذا الموقف يلقي بأعباء كبيرة على عاتق الإعلام المقروء في صياغته العنوانات الرئيسة للصفحة الأولى ؛ إذ إنّ توظيف اللغة البصرية من الصعوبة بمكان حين تفتقر إلى المؤثر السمعي ؛ الذي كان عنصراً خاصّاً في تكوين اللغة ، ونشوئها ، ونموها عبر الأجيال ، والأزمان مالم تلجأ إلى البدائل المذكورة آنفاً ، أو غيرها .

والعنوان الرئيس Headline أو ما يُعرف بالمانشيت [١١] أخطر ما يمكن لمحه في هذه المعادلة الصعبة ، إذ يجب على وفق الأدبيات الإعلامية أن تتوافر فيه مجموعة من الخصائص حتى يكون ناجحاً ، منها [١٢] :

١-الاختصار ، و الاختزال ، والتكثيف .

٢-الجذب .

٣-الإقناع ، والتأثير .

٤-الجمالية .

بمعنى مختصر : يجب أن يكون العنوان الرئيس مختصراً مؤثراً مقنعاً ، يعادل ما تفقده الصحافة المقروءة من الأثر السمعي ، ويجيب على الأسئلة المشهورة : مَنْ ؟ وما ؟ وأين ؟ ومتى ؟ وكيف ؟ [١٣].

ونلحظ في التنظيرات الإعلامية لمفهوم العنوان الرئيس تزاوجاً بين المفاهيم الإعلامية في ضوء تقنيات لغوية محدّدة فإنّ (جذب الانباه ، والإثارة ، والتساؤل) تتداخل مع تناسب الألفاظ ، والمعاني[١٤] ، بمعنى أنّ اللغة والإعلام يعتمدان على وحدة تقنية متكاملة للوصول إلى غاياتهما معاً .

وعليه يمكن أن نطرح أسئلة أخرى ، عن ارتباط العنوان الرئيس بأغراض اللغوية كالإيصالية ، والجمالية ، والتأثيرية ... الخ .

نعم يجب أن يكون العنوان الرئيس موصلاً للأفكار ، ومؤثراً في المتلقي ، ويحمل من صفات

الجمالية المنشودة لتكتمل أدوات التأثير فيه ، الأمر الذي يجعل من كتابته تخصصاً إعلامياً دقيقاً يحتاج إلى استيعاب دقيق للغة ، وأساليبها في التكوين - المفردة ، والجملة بتراكيبها المتنوعة - ، والمناورة - في البلاغة - وبراعة تذوق اللونِ اللفظيّ منه ، والبصري على حدّ سواء ، ورؤية ممتازة في التصميم الطباعي ، والإخراج الفني للصفحة الأولى ، مما لا يدعُ مجالاً للضعفِ ، والركاكة في صناعته ، وصياغته ، وتصميمه .

لذا فإنّ لغة العنوان الرئيس تستحق من الاهتمام ما يفوق الفرعيات ؛ لحاجتها الماسّة لمواصفات قياسية قد لا تتحقق في غيرها ، من ذلك التكثيف إلى حد اختصار الحدث بكلمة واحدة « كما عنونت صحيفة (لونزو) الفرنسية صفحتها الرئيسة بكلمة «الخروج»، عندما فشلت فرنسا في التأهل إلى مونديال كأس العالم عام ١٩٩٤، ونافستها صحيفة (لاجازيتا) الإيطالية في الاختصار أيضا عندما خرجت بمانشيت يقول: «نحن العالم»، بعد فوز «الآزوري» بكأس العالم عام ٢٠٠٦» [١٥].

إلا إنّ هذه المجازفة قد تكون خطيرة لأنّ « صلاحية مضمون كلمة لا توجد إلا عندما تكون جزءاً من مجموع يتمفصل بدوره مع وحداتٍ أعلى ليشكّل ذلك نظاماً معجميّاً ، وتتحدّد الكلمات المختلفة بعلاقاتها الناجمة عن أوضاعها داخل المجال « [١٦] يتجاوز ذلك النظام المعجمي حدود المعجم الصفرية إلى علاقات جديدة في أنظمة دلالية فعّالة تحكمها علاقات السياق ، والنُظم التركيبية الداخلية ، والقرائن ، والمؤثرات الخارجية الراسمة لحدود النصّ ، بمعنى آخر فإنّ « التلاحم بين المفردات ووظائفها النحوية في الجملة تفاعل عقليّ صوتيّ في وقت واحد ، وبعبارة أخرى هو تفاعلٌ دلاليّ نحويّ معاً ، لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر»[١٧].

وتبقى المعضلة الكبرى التي يجب أن تنصبّ عليها جهود المحررين لتلافيها ، وتجاوز أبعادها السلبية في كون المتلقي منتجاً للنصّ عند قراءته ، فهو لا يعتمد على ما يُسلّطه الكاتب من أفكارٍ - مالم يكن كاتباً متمرّساً ، وخبيراً - بل يعمل على إنتاج نصّه الفردي الخاص به ، فالقارئ هو المنتجُ الذي يُخرج تأثير النصّ من كونه هو الفاعل في الحركة الدلالية التي تُسلّط على القارئ إلى كونه منتجاً لدلالات جديدة ، ومتكاثرة للنصّ نفسه [١٨].

وفي مثل العنوان الرئيس فإنّ حزمة من المؤثرات السياقية ستؤثر سلباً ، أو إيجاباً على فهم النصّ ، وتتجاوز المؤثرات السياقية هذه حدود المعجميّة التقليدية للألفاظ ، وإشكاليات رصف الجمل في شكل قوالب جاهزة إلى مؤثرات تصميمية تتحددّ في حجم الخط الذي يُكتبُ به العنوان الرئيس ، ولون ذلك الخط الذي يجب أن يكون ميزاً لافتاً للانتباهِ ، وجاذباً لعين المتلقي إليه ، إضافةً لهذا مكان العنوان الرئيس في الصفحة الذي يجب اختياره بذكاء يجعله مهيمناً على ما في الصفحة من أخبارٍ ، بعبارةٍ أخرى : فإنّ العنوان الرئيس يختصر الصفحة الأولى بقوة ، ولا يكاد ينافسه إلا مقالة التحرير الرئيسة ؛ التي يجب انتقاؤها بشكل سليم لا يوقعها في دائرة المنافسة مع العنوان الرئيس .

المحور التطبيقي

دراسة في العنوانات الرئيسة لصحيفتي التآخي ، والصباح العراقيتين

ومتابعة العنوانات الرئيسة في الصحيفتين لمدة زمنية محددة يتلخص في رصد مجموعة من الملاحظات اللغوية والتقنية فيهما ، ومن تلك الملاحظات :

١-طول العنوان ، وشكله :

يبدو في تتبع صياغة العنوانات الرئيسة لصحيفة التآخي اضطراباً ظاهراً في طول العنوانات - خلافاً لصحيفة الصباح - ، فلا نكاد نتلمس تقنية واضحة فيها ، وعلى الرغم من التزام المنظّرين لشرط الاختصار ، والتكثيف في صياغة العنوان الرئيس إلا إنّ الصحيفة لم تلتزم بذلك ، ومن الأمثلة على ذلك :

١-« في حديث خاص للتآخي : الرئيس البارزاني : نحو انتخاب حكومة مؤقتة ، وملء الفراغ الأمني ، والسياسي ، نعمل من أجل دستور عراقي دائم ... من أجل السلام ، والرفاه ، والعمل المثمر ... « [١٩] .

٢-« الحاكم المدني الأمريكي بول بريمر : بعض عائدات النفط يمكن أن توزَّع على العراقيين مباشرة « [٢٠] .

ولا تبدو الجمل المتلاصقة في مثل هذه النصوص في وحدة منطقية متسلسلة من جهة ، ولا تحمل التكثيف المطلوب منها في تأدية المعاني من جهة أخرى . وتفتقد بسبب هذه الإطالة جاذبية الخبر الذي يحمل تسليطاً مرتقباً للخبر على المتلقي في طبيعته وهو مختصرٌ . وقد يؤخذ بنظر الاعتبار المساحة التصميمية للصفحة الأولى التي تُوجب اختزال العنوان الرئيس ، واختصاره ، وفي ظلّ رؤية إخراجية لهيكل الصفحة الأولى بشكل منسّق، ومؤثر فإنّ التزام الاختصار في العنوان الرئيس يمثّل الحلّ الأمثل في صياغته ، وصناعته .

و لا تختلف الصحيفتان في تقديم شكل العنوان الرئيس ، إذ تتميز صحيفتا التآخي ، والصباح بابتداءٍ مميّز يعتمد على ذكر الإعلام أولاً ، ثم ردفه بالجملة ، ومن ذلك :

١-« بوش يتوجه إلى أوربا مدعوماً بانتصاره في العراق ... « [٢١] .

٢-« باول : واشنطن تؤيد قيام حكومة الشعب العراقي ؛ لتحلّ مكان الإدارة المؤقتة»[٢٢].

٣-« علاوي في النجف يدعو لإلقاء السلاح « [٢٣] .

٤-« الصدر وافق على شروط وفد المؤتمر « [٢٤] .

وقد تبدو لذكر العلم قيمة حقيقية في صياغة الخبر خصوصاً إذا كانت هناك أحداث يُشارك فيها صاحب هذا العلم بشكل فاعل ، وتكون للمتلقي حاجة لتتبع أخباره ، لذا كان العنوان الذي طرحته الصباح ناجحاً في الصياغة والمضمون .

وقد يثار بحساسية مفرطة اختيار الإعلام في العنوانات الرئيسة للصحيفة بما يجعلها عرضة للانتقاد ، وقد يمكن للمتابع الإعلامي معرفة توجّهات الصحيفة عن طريق إكثارها من إبراز عَلَم معيّن ، ومن ذلك إكثار صحيفة التآخي من ذكر السيد مسعود البارزاني في تصريح واضح بتبعيّةَ الصحيفة لتوجهاته السياسية ، والثقافية ، والحزبية ، لذا فصحيفة التآخي تُصنّفَ بشكلٍ ، وآخر في إطار الصحف الحزبية الخاصّة .

٢- وجود أكثر من عنوان رئيس :

ومن اللافت للنظر امتياز صحيفة التآخي بأكثر من عنوان رئيس في الصفحة الأولى ، وهو أمر غير مستساغ من الناحية العملية ما لم تكن هناك حاجة إلى ذلك كتساوي القيمة التأثيرية للخبرين ، وتبتعد صحيفة الصباح عن هذا الأمر بشكلٍ كبير إلا أن ميل صحيفة التآخي إلى الإطالة في صياغة الخبر جعلت العنوانات الرئيسة فيها متزاحمة ، ومتصارعة في الوقت نفسه ؛ إذ المفروض أن تتوزع الصورة البصرية لدى المتلقي القارئ بشكل متساوٍ ، وهذا ما لم تحققه التآخي . ولا نجد ذلك

في صحيفة الصباح إلا في حالة واحدة نادرة ؛ ورد فيها عنوانان رئيسان ، هما :
أ-زيادة جديدة للمتقاعدين [٢٥] .
ب-الصدر يُرحب بدعوة عنان ، وإيران تنفي علاقتها بالأحداث .
ولا يبدو أيّ مبرّر لتزاحم الخبرين ، إلا أنّ وضع الخبر الأول في الأعلى وبشكل أكثر بروزاً قد يوحي بضغوطات سياسية تُمارس على الإعلام في ذلك الوقت في توجيه الأنظار عن مأزق النجف إلى مكتسبات اقتصادية غير واضحة تداعب مشاعر طبقة كبيرة من العراقيين [٢٦] !.
٣-جمود الصياغة الخبرية لجملة العنوان الرئيس :
تطغى صياغات معينة على العنوان الرئيس في صحيفة التآخي ، مثل :
١-نحو انتخاب حكومة مؤقتة .
٢-أبرز النقاط في المشروع الأمريكي لرفع العقوبات عن العراق [٢٧]
٣-واشنطن طالبت أنقرة بسحب قواتها من شمال العراق [٢٨] .
٤-الرئيس الأمريكي يتحدث عن قرار رفع العقوبات [٢٩] .
والأمر يتكرر في الصباح أيضاً ، فنقرأ تراكيب مثل :
١-ضمن خطة الإعمار : مليارات الدولارات ، وآلاف من فرص العمل [٣٠] .
٢-ربع مليون دعوى كردية ضد الطاغية [٣١] .
يعتمد محرر العنوان في مثل هذه الأمثلة على صياغة تقليدية واحدة ترتكز على الإسناد الخبري المباشر ، فالمبتدأ ، والخبر يجعلان من العنوان خبراً لا يتجاوز حدود التصور الطبيعي ، ويفتقر إلى ما تمتلكه العربية من تنوع ، ونماء في ترتيب المسند ، والمسند إليه ، ولا يجد العربي حرجاً في أبواب النحو من تقديم المبتدأ ، وتأخيره ، وجواز حذفه ، أو وجوبه [٣٢] تبعاً لسياق النصّ وملابساته ، وهذا ما تفتقر إليه هذه الأمثلة .
ويبدو أنّ الشكل المفضّل لصحيفة الصباح في صياغة عنوانها الرئيس يعتمد على إسناد الفعل إلى المبتدأ ؛ الذي يكون غالباً عَلَماً ثم يردف بجملة فعلية تكون هي الخبر ، من ذلك :
أ-« علاوي في النجف يدعو لإلقاء السلاح » [٣٣] .
ب-« علاوي يؤكد استخدام الحكمة لحلّ النزاع » [٣٤] .
ت-« الشعلان هدّد أنصار الصدر بطلقة الرحمة » [٣٥] .
ث-« الحكومة ، والمؤتمر الوطني يُطلقان مبادرة سلام ، والصدر يستجيب » [٣٦] .
ويظهر هذا القالب الذي جمدت عنده صياغة العنوان الرئيس فقراً ظاهراً بأساليب اللغة العربية ، وتراكيبها المتنوعة التي غابت بشكل مقلق ، إذ لا يمكن الاطمئنان لمستقبل اللغة العربية إذا ما تُركت كثير من أساليبها عن عمدٍ ، أو تقصير من دون استعمالها في الخطاب على مختلف مستوياته .
تبدو أشكال هذا القالب في إسنادات خبرية بسيطة ، قد تكون ناجحة حيناً ، وهشّة في أحيانٍ أخرى ، ومن تلك الأشكال :
أ-مبتدأ (مضاف + مضاف إليه) + خبر (جار ، ومجرور) ، ومن ذلك : « استمرار تدفّق المقاتلين على النجف الأشرف » [٣٧] .
ب-مبتدأ (مضاف + مضاف إليه) + خبر (فعل مضارع) ، ومن ذلك : « قتالُ النجفِ يتصاعدُ ... » [٣٨]

ت-مبتدأ + خبر (جملة فعلية : فعل مضارع + مفعول به + صفة) + جار ، ومجرور ، ومن ذلك : الحكومةُ تتبنّى حلاً سلميّاً لأزمة النجف «[٣٩] .

ولا نجد في هذه العنوانات ميلاً جمالياً في الصياغة إلاّ نادراً كما في «سباقٌ بين البندقية ، وغصن الزيتون في النجف «[٤٠] .

٤-المفردة الإعلامية في العنوان الرئيسي :

تمتلك نصوص العنوانات الرئيسة التي تطرحها صحيفتي التآخي، والصباح ثراءاً كمياً نتج عن الاطالة التي صيغت بها تلك العنوانات ، ولكنّها مع ذلك كله لم تكن بالمستوى المطلوب من كافة التأثير الإعلامي من الناحية النفسية إلا ما ندر.

وتتسم تلك المفردات بانتمائها إلى حقول دلالية متقاربة ، بما يعطي انطباعاً بفقر ثقافة المحرر الكاتب لتلك العنوانات من الناحية اللغوية ، أو تحيّزه لفئة خبرية واحدة ، وهي الفئة السياسية كما سيظهر .

تختزن العنوانات ألفاظاً مثل : (حديث خاص ، إحياء ذكرى ، أبرز النقاط، استئناف العمل، مصدر دبلوماسي ، مجتمع غداً ، الهيئة القيادية ، الوضع الأمني ، تسلم السلطة، قيام حكومة، تنازلات ، دستور، انتخابات، العقوبات الدولية، الإعمار، البناء، القوات الامريكية، ينتقد، الدعم الدولي، يتباحث ، الإرهاب ، الاجتماع، الديمقراطية، عمليات مسلّحة، العملية السياسية، السلاح ، اشتباكات عنيفة ، ترشيح، وفد حكومي ، رفيع المستوى ، شروط ، يطالب، فشل المفاوضات ... الخ).

تنحى هذه الألفاظ سلوكاً خاصاً يجعلها تتمحور في فلك معرفي واحد هو السياسة ، إلاّ أنّ تكرار الألفاظ بشكل يومي مستمر يجعلها تسير نحو ظاهرة ابتذال اللغة بما يحيطها بهالة من الملل والسأم ؛ لكثرة قراءتها ودورانها على الألسن.

وهناك مجموعة أخرى من الالفاظ تخضع لحقل دلالي آخر، هو حقل الإعلام ، ومن تلك الألفاظ نذكر: (البارزاني، بوش، بريمر، أمريكا، العراق، الدول الغربية، الجادرجي، الحكيم، الأمم المتحدة، بلير ، علاوي ، الشعلان ، الصدر... الخ) ، ويوحي استعمال هذه الأعلام بمناطقية محددة هي (العراق) وما تؤثر فيه .

وما يحسب لاستعمال الألفاظ في الصحيفتين المذكورتين ميلهما إلى استعمال اللغة الفصحى، على الرغم من انتماء إحداهما، وهي صحيفة (التآخي) إلى قومية غير عربية ، إلاّ أنها لم تستعن باللغة الكردية في مفرداتها ؛ لإيمانها بقومية القارئ المتلقي ، بمعنى أنَّ سياسة الصحيفة محددة مسبقاً بنوعية الاصدار المكتوب من الصحيفة الموجّه لنوعية خاصة تتحدث العربية وتقرأ بها.

ولم يشذّ عن هذا الوصف الا حالة واحدة فقط في صحيفة الصباح، إذ ظهر مقال في الصحيفة الاولى يحمل عنواناً بالعامية هو (لا شيش، ولا كباب)[٤١].

ويبدو أن المحرر لم يستسغ استعمال اللفظة العربية (سُفّود) بدلاً من (شيش) لغرابة اللفظة العربية وقلة استعمالها .

٥-العنوانات الفرعية (الجانبية) :

ولا بدّ من دراسة العنوانات الجانبية التي تحيط بالعنوان الرئيس بأي شكل من أشكال الطباعة؛

إذ يمثل العنوان الجانبي مؤثراً قوياً في توجيه الانظار إلى العنوان الرئيس سلباً أو أيجابا ، ومن تلك العنوانات الجانبية :

-أكبر مقبرة جماعية بين النجف ، والسماوة [٤٢]. - السلطة [٤٣]. - المسؤولية [٤٤]. - صراع[٤٥]. - الهدوء يعم النجف [٤٦]. - مدينة الصدر هادئة [٤٧]. - عقبات [٤٨].

ونفاجأ بتحقق شروط العنوان الرئيس من الاختزال والاختصار والتكثيف ورشاقة التعبير في مثل هذه العنوانات الفرعية المعبِّرة !؟ وهو أمر جعل من قيمة العنوانات الرئيسة ضعيفة لا تكاد تؤثر في المتلقي !.

وتميل صحيفة التآخي في عنواناتها الفرعية إلى التشابه في القيمة الإعلامية للعنوان الرئيس؛ فالعنوانات الفرعية سياسية في الغالب تمتلك صفة الصلة القريبة من العنوان الرئيسي بما يجعل العنوان الرئيس غير متميز، أما صحيفة (الصباح) فتلجأ إلى عنوانات فرعية تتصف بالمغايرة في جنس الخبر، وأغلبها اقتصادية ، مثل :

- (١٠٠) ألف دينار مخصصات إنذار الشرطة [٤٩] .

-المصرف العقاري يمنح قروضاً بالدولار[٥٠] .

-تعليمات لتسليف العقاري [٥١] .

فضلاً عن البوسترات الإعلانية الكثيرة المضعِّفة لقيمة التأثير في العنوانات الرئيسة ؛ نظراً لقوة الجذب الحاصلة من توظيف الأخبار الاقتصادية بشكل إغراءات مالية في ظروف اقتصادية قاسية .

تعتمد العنوانات الفرعية التي ذكرت في صياغتها على اختصار في استعمال المفردة الواحدة (الصراع، السيستاني ، ... الخ) اذ يُذكر المسند إليه من دون ذكر المسند، وهي (الاخبار المحذوفة) بما يمنح القارئ فرصة للتأمل وطرح الافتراضات التأويلية لتلك الأخبار المحذوفة. وقد تعتمد بعض العنوانات الفرعية على صياغة النسبة الاسنادية الاضافية، المتكوّنة من المضاف والمضاف إليه، مثل (اختطاف طفل) التي تحمل غموضاً جاذباً للمتلقي بما يشعره بالرغبة، بمعرفة الخبر .

ولا نرى بديلاً للإسناد الخبري في العنوانات الرئيسة ، والفرعية في الصحيفتين معاً، بما يجعلنا نحكم بافتقار المحررين لحركيّة اللغة العربية ، وإبداعها، وثرائها في الصياغات والاساليب ، ونلحظ هيمنة الجملة الاسمية بطرق مبسطة في تلك الصياغة، إلاّ في مثال نادر يعتمد على الجملة الفعلية التي تبدأ بفعل أمر أثقله طول النص ! (اتركوا لغة الرصاص، وعودوا إلى الحوار، ومنطق السلام)[٥٢]. ولو اكتفى المحرر بالجزء الأول من الجملة (اتركوا لغة الرصاص) لكان العنوان ناجحاً ومؤثراً؛ لأن الجملة الثانية (عودوا ...) تحصيل حاصل لمعنى الجملة الاولى يمكن فهمها منها ، فلا حاجة لهذا الاطناب فيها .

تُبدي ملاحظة العنوانات الفرعية في صحيفة الصباح انسجاماً ظاهراً مع العنوانات الرئيسة في المحتوى ، ولا سيما كلمة رئيس التحرير ؛ التي تُشكّل اختصاراً ، أو اختزالاً ، أو تعليقاً على العنوان الرئيس ، ومن ذلك :

أ-« سباقٌ بين البندقية ، وغصن الزيتون في النجف « ... (صراع) [٥٣] .

ب-« الحكومةُ تتبنّى حلاً سلميّاً لأزمة النجف « ... (أصوات) [٥٤] .

ت-« الهدوء يعمُّ النجف « ... (المواطن) [٥٥] .

ث-« غموض يلفّ مفاوضات تسليم المرقد العلوي « ...(٣ في واحد)[٥٦] .

ونلاحظ استعانة النص بالصورة المتوافقة في تعبيرها مع الحدث فنجدها صورة ضبابية غامضة إذا كان الحدث متشنّجاً ، أو عنيفاً كصورة الدبابة ، وصورة (الحَمامْ) عندما يكون الحدث مرتبطاً بالسلام[٥٧] .

الخاتمة

ترتبط اللغة والصحافة بأكثر من وشيجة ، ولعلّ قدر الغاية في الإيصال والتأثير جعل كلّاً منهما تقترب من الأخرى بأكثر من شكل .

ومن نافلة القول : إنّ الصحافةً وليدة الحدث ، ولم يكن عام ٢٠٠٣ م إلا حدثاً كبيراً بجميع مواصفات صفة كبير للعراق ، حين سقط في مدة قصيرة نظاماً يُعدّ من أقوى الأنظمة الشمولية في الشرق ، والعالم ، ومن المنطقي أن يواكب ذلك تغيّر في الصحافة التي كانت قبل السقوط وجهاً من أوجه النظام الشمولي ، وهذا التغير المفترض شاملٌ لكلّ ما يمسّها من قريب ، وبعيد .

ومن تلك التغييرات اللغة ، وصناعة الخبر ، وهذا البحث الذي رصد العنوانات الرئيسة في صحيفتين عراقيتين في مدة زمنية محدّدة تتبع صياغة العنوان الرئيس فيهما ، وكانت له وقفة قصيرة معه ، فوجد ملاحظات مهمة تتعلّق به ، ومن تلك الملاحظات :

١- تميل اللغة إلى الوسيلة الاكثر استخداماً وتعبيراً ونجاحاً في الاداء الصحفي الإعلامي .

٢- تختزل الصحافة الوظيفة السمعية المهمة في الاداء اللغوي ، واستبدالها بالوظيفة البصرية.

٣- يمثّل العنوان الرئيس اختزالاً للطاقة اللغوية العرفية ، لذا اشترط الإعلاميون فيه الاختزال والاختصار والتكثيف.

٤- لاحظت الباحثة في دراستها للعينّتين (صحيفة التآخي والصباح) تصوراً ظاهراً في التزام المحررين بشرط صياغة العنوان الرئيس من الناحية الأسلوبية والإعلامية معاً .

٥-تختلط مفاهيم العنوان الرئيس في صحيفتي (التآخي والصباح) بحيث جعلتا من العنوان الفرعي منافساً قوياً للعنوان الرئيس من الناحية اللغوية والإعلامية .

٦- يفتقد العنوان الرئيس في الصحيفتين إلى الاهمية بسبب عوامل كثيرة منها : الاقتصار إلى الاساليب العربية المتنوعية والابتعاد عنها، وحشر الصفحة الاولى بموضوعات جانبية جاذبة للمتلقي على حساب العنوان الرئيسي .

٧- تنتمي مفردات العنوان الرئيس في غالبها إلى حقلين دلاليين هما السياسة والإعلام ، بما يجعل محرر العنوان الرئيسي يدور في فلك دلالي ضيّق .

المصادر :

١.التوليد اللغوي في الصحافة العربية الحديثة : ١٢٣ .
٢.التفكير واللغة ، جودث جرين ، ترجمة وتقديم : د . عبد الرحيم جبر: ١١٤ .
٣. ينظر: اللغة والإبداع ، مبادئ علم الأسلوب العربي ، شكري محمد عيّاد : ٥٤-٥٥ .
٤.الإعلام العربي ، وانهيار السلطات اللغوية ، د . نسيم الخوري : ٦٣ .
٥.الخصائص ، أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق : محمد علي النجار : ١٣/١ .
٦.ينظر: بلاغة التراكيب ، دراسة في علم المعاني ، توفيق الفيل : ١٣ فما بعدها .
٧.علم الأسلوب ، د . صلاح فضل : ٣١٨ .
٨.لغة الصحافة المعاصرة : ١١ .
٩.وقد نظّر البلاغيون لشروط فصاحة الكلمة ، والكلام ، وكان من أهم تلك الشروط عدم تنافر المفردة ، والتركيب من الناحية الموسيقية ، ينظر: علم المعاني ، دراسة وتحليل ، د. كريمة محمود أبو زيد : ١٢-١٣ .
١٠.دور البنية الصرفية في وصف الظاهرة النحوية ، وتقعيدها ، لطيفة إبراهيم النجار : ١٩٠ .
١١.المانشيت كلمة أصلها فرنسي، وأشهر معانيها «عنوان مختصر»، وقد تعارف الصحفيون على إطلاقها على عنوان الموضوع الرئيس بصدر الصفحة الأولى . ينظر : فن صناعة المانشيت الصحفي ، إبراهيم حشاد (٢٠١١/١١/١٤ م) : www.akhbarak.net
١٢. ينظر: لغة الصحافة المعاصرة : ٢٥ .
١٣.ينظر: لغة الصحافة المعاصرة: ٢٦ .
١٤.ينظر: اللغة العربية في وسائل الإعلام ، د . كامل جميل ولويل : ٤٠-٤١ .
١٥.فن صناعة المانشيت الصحفي (٢٠١١/١١/١٤ م) :www.akhbarak.net
١٦.اللغة والاتصال ، في الخطاب متعدد المعاني ، د. ماجدة توماس حانه : ٧٥ .
١٧.النحو والدلالة ، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي ، د. محمد حماسة عبد اللطيف: ١٦٦ .
١٨.ينظر: إشكالية التلقي ، والتأويل ، دراسة في الشعر العربي الحديث ، د. سامح الرواشدة : ١٧-١٨ .
١٩.صحيفة التآخي ، ع ٣٩٨٢ ، ٢٠٠٣/٥/١٠ م .
٢٠. صحيفة التآخي ، ع ٤٠١٤ ، ٢٠٠٣/٦/٢٣ م .
٢١. ع ٣٩٩٧ ، ٢٠٠٣/٥/٢٩ م .
٢٢.ع ٣٩٩٠ ، ٢٠ /٥/ ٢٠٠٣ م .
٢٣.ع ٣٢٩ ، ٢٠٠٤/٨/٩ م .
٢٤.ع ٣٣٨ ، ٢٠٠٤/٨/١٩ م .
٢٥. ع ٣٣١ ، ٢٠٠٤/٨/١١ م .
٢٦.تبدو ظاهرة ارتباط الخبر الاقتصادي على شكل وعود بإنجازات ، أو مكافآت مالية مع الخبر السياسي في صحيفة الصباح في هذه المرحلة بشكل يستحق الدراسة ، لعلّها تظهر نوعاً من الضغط الحكومي على الصحافة على شكل مغريات مالية .
٢٧.ع ٣٩٨٣ ، ٢٠٠٣/٥/١١ م .

٢٨.ع ٣٩٨٦ ، ٢٠٠٣/٥/١٤ م .
٢٩.ع ٣٩٩٤ ، ٢٠٠٣/٥/٢٦ م .
٣٠. ع ٣٢٥ ، ٢٠٠٤/٨/٤ م .
٣١.ع ٣٢٦ ، ٢٠٠٤/٨/٥ م .
٣٢.ينظر: شرح عقيل على ألفية ابن مالك ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، باب تقديم الخبر وتأخيره ٢١٦/١ فما بعدها
٣٣.ع ٣٢٩ ، ٢٠٠٤/٨/٩ م .
٣٤.ع ٣٤٠ ، ٢٠٠٤/٨/٢٢ م .
٣٥.ع ٣٤٣ ، ٢٠٠٤/٨/٢٥ م .
٣٦.ع ٣٣٦ ، ٢٠٠٤/٨/١٧ م .
٣٧.ع ٣٣٠ ، ٢٠٠٤ /٨/١٠ م .
٣٨.ع ٣٣٢ ، ٢٠٠٤/٨/١٢ م .
٣٩.ع ٣٣٥ ، ٢٠٠٤/٨/١٦ م .
٤٠.ع ٣٣٧ ، ٢٠٠٤/٨/١٨ م .
٤١.ع٣٢٢، ٢٠٠٤/٨/١م.
٤٢. التآخي ، ع ٣٩٨٥، ٢٠٠٣ /٥/١٣م.
٤٣.نفسها .
٤٤.نفسها ، ع٣٩٨٧، ٢٠٠٣ /٥/١٥م.
٤٥.الصباح ، ع٣٣٧، ٢٠٠٤/٨/١٨م.
٤٦.الصباح ، ٣٣٩، ٢١ / ٨/ ٢٠٠٤م.
٤٧. نفسها .
٤٨. نفسها ، ع٣٣٨، ٢٠٠٤/٨/١٩م.
٤٩.نفسها ،. ع ٣٣٦، ٢٠٠٤/٨/١٧م.
٥٠. نفسها ، ع ٣٣٤، ٢٠٠٤/٨/١٥م.
٥١.نفسها ، ع ٣٣٣، ٢٠٠٤/٨/١٣م.
٥٢.الصباح، ع ٣٣٣، ٢٠٠٤/٨/١٣م.
٥٣. ع ٣٣٧ ، ٢٠٠٤/٨/١٨ م .
٥٤. ع ٣٣٥ ، ٢٠٠٤/٨/١٦ م .
٥٥. ع ٣٣٩ ، ٢٠٠٤/٨/٢١ م .
٥٦.ع ٣٤١ ، ٢٠٠٤/٨/٢٣ م .
٥٧. ينظر: الصباح : ع ٣٣٩ ، وع ٣٤٠ مثلاً .